تم تحميل هذا المقال من منتديات المغرب الأقصى الإسلامية www.akssa.org

حرص ملوك المغرب على اتباع الكتاب والسنة

جديرٌ بأن يبني كما بنوا ويفعل فوق ما فعلوا

جلالة الملك الحسن الثاني

للدكتور محمد تقي الدين الهلالي

قال تعالى في سورة آل عمران 102 (ياايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) 103 ، قال بعض المفسرين في قوله تعالى (حق تقاته) ان يطاع فلا يعصى ، وان يشكر فلا يكفر ، وان يذكر فلا ينسى، لمانزلت هذه الآية ، قال الصحابة يا رسول الله ، ومن يقدر على هذا ، فانزل الله تعالى آية اخرى مبينة للمقصود بها وهي قوله تعالى في سورة التغابن (فاتقوا الله مااستطعتم واسمعوا واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) ، وقال تعالى في اول سورة الاعراف (اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء قليلا ما تذكرون) ، وقال في سورة الزخرف 243 (فاستمسك بالذي اوحي اليك انك على صراط مستقيم ، وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسالون) .

امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يتمسك بالقرآن اعتقادا وعملا وتحكيما في كل ما ينزل به من النوازل، ثم قال تعالى وانه اى القرآن لذكر لك يا محمد ولقومك لكل من آمن بك وسوف تسالون عنه ايها الناس هل اتبعتموه واستضأتم بنوره وتاديتم باديه ، ام جعلتموه وراءكم ظهريا واهملتموه ، قال تعالى في سورة آل عمران 105 وما بعدها (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فاما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، واما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية تبيض وجوه اهل السنة والائتلاف وتسود وجوه اهل البدعة والاختلاف ، والآيات في هذا المعنى كثيرة في كتاب الله العزيز ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ، رواه البغوي بسند جيد.

وبعد هذا التمهيد اقول ان ملوك المغرب كانوا من اشد امراء المسلمين حرصا على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونبذ كل راى يخالفهما كائنا ما كان ، وسانقل هنا شيئا مما يدل على ذلك من آثار الملوك العظام الذين بنوا للمغرب صروح مجد خالدة لا يمحوها مرور الزمن ، قال الناصري رحمه الله في الاستقصا في الجزء الثاني صفحة 112 ما نصه :

(امر عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى الاصول من الكتاب والسنة) .

لما كانت سنة خمسين وخمسمائة امر امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي باصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه ، وبتغيير المنكرات ما كانت ، وامر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة كتب الحديث ، واستنباط الاحكام منها وكتب بذلك الى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس والعدوة فجزاه الله خيرا .

وقال المصنف المذكور في الكلام على دولة يعقوب المنصور في الجزء نفسه صفحة 178 ما نصه :

وكان المنصور يشدد في الزام الرعية باقامة الصلوات الخمس ، وقتل في بعض الاحيان على شرب الخمر ، وقتل العمال الذين تشكوهم الرعايا ، وامر بفرض فروع الفقه واحراق كتب المذاهب ، وان الفقهاء لا يفتون الا من الكتاب والسنة النبوية ولا يقلدون احدا من الائمة المجتهدين بل تكون احكامهم بما يؤدي اليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والاجماع والقياس .

قال ابن خلكان : ولقد ادركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا الينا وهم على ذلك الطريق مثل ابي الخطاب بن دحية واخيه ابي عمرو ، ومحي الدين بن عربي نزيل دمشق وغيرهم ، وكان يعاقب على ترك الصلوات ويامر بالنداء في الاسواق وبالمبادرة اليها ، فمن غفل عنها او اشتغل بمعيشته عزره تعزيرا بليغا .

وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته حتى انه لم يبق بجميع اقطار بلاد المغرب من البحر المحيط الى برقة الا من هو في طاعته وداخل في ولايته الى غير ذلك من جزيرة الاندلس ، وكان محسنا محببا للعلماء ، مقربا للادباء . اهـ .

وفي حاشية الطبعة الاخيرة على ما ذكر المؤلف عن عبد المؤمن بن علي من تحريقه كتب الفروع واصداره امره الى العلماء بتحكيم الكتاب والسنة ما نصه ... الذي في كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي ان يعقوب المنصور هو الامر بذلك ، فانظر هل فعل هذا اقتداء بجده ام من ذاته لاول الامر ، لكن الظاهر من كلام المراكشي ان احراق كتب الفروع ورد الناس الى الكتاب والسنة كان مقصدا وعزما لعبد المؤمن وابنه يوسف الا انهما لم يظهراه واظهره يعقوب بعدهما . هـ

وما ذكره المؤلف هنا منقول عن صاحب القرطاس ، وكلام صاحب المعجب اولى بالاعتبار لقربه من الزمن المذكور ومشاهدته للواقع . اهـ

قال محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي : وما المانع من ان يكون البادىء بهذا الامر الاصلاحي عبد المومن والمجدد له حفيده يعقوب وقد اعترف صاحب الحاشية بان احراق كتب الفروع ورد الناس الى الكتاب والسنة كان مما عزم عليه عبد المومن وابنه يوسف ، ومن اين له انهما لم يظهراه ؟ وقد ثبت من نقل مؤلف الاستقصا وهو من المحققين والثقات ان عبد المومن اظهر ذلك ، ومن علم حجة على من لم يعلم ، وعبد الواحد المراكشي وان كان زمانه قريبا من زمانهم فلا يلزم ان يحيط علما بجميع اخبارهم ، ومن درس تاريخ دولة الموحدين علم يقينا ان هذا النوع من الاصلاح كان شغل ملوكهم الشاغل لم يتوانوا فيه في اي وقت من الاوقات ، وقد قرات خبرا آخر في احد كتب التاريخ من اخبار يعقوب المنصور رحمه الله انه قال لوزيره : المسالة الواحدة من مسائل الفقه اجد فيها انوالا عديدة في المدونة فما المخرج ، قال يا امير المؤمنين اختلف علماء الاصول فقال بعضهم المشهور ما قوى دليله وقال بعضهم المشهور ما كثر القائلون به ، وقال بعضهم المشهور ما وافق مذهب مالك في المدونة ، فقال المنصور ما زدتني الا حيرة ، ثم اخذ المصحف وسنن ابي داود وقال انظر ايها الوزير انا ما عندي الا هذا واشار الى القرآن، وهذا واشار الى سنن ابي داود ، ثم سل سيفه وقال او هذا انا لا احكم الا بالقرآن والحديث ومن ابى حكمهما فما له عندي الا السيف . وتامل كلام الناصري رحمه الله لما حكى عن عبد المؤمن انه امر باحراق كتب الفروع وامر القضاة والمفتيين الا يقضوا ولا يفتوا الا بادلة الكتاب والسنة ، قال بعد ذلك فجزاه الله خيرا . وهذا يدلنا على انه لم يزل في المغرب من يدعو الى الكتاب والسنة وينبذ كل ما خالفهما حتى في هذا الزمان ، لان الناصري رحمه الله استحسن عمل عبد المؤمن بن علي في احراق كتب الفروع وحصر القضاء والافتاء في ادلة الكتاب والسنة ، ومن المعلوم ان الناصري رحمه الله عاش الى زمن مولاي عبد العزيز بن الحسن ، اما في هذا العهد الحسني فان الدعوة الى اتباع الكتاب والسنة قد انتشرت وانتصرت وهي في اقبال مستمر واعداؤها في ادبار ، والفضل لله سبحانه ثم لجلالة الملك الحسن الثاني الذي فسح لها المجال ادام الله توفيقه وتسديده .

فان قلت فما الدليل على صحة ما فعله عبد المومن بن علي وحفيده يعقوب المنصور من احراق كتب الراي وحمل الناس على الاستغناء عنها بنصوص الكتاب والسنة ؟ اقول دونك الجواب ، نقله من تاليف امام عظيم كان في ذلك العصر نفسه حاملا للواء الكتاب والسنة وهو حافظ المغرب ابو عمر يوسف بن عبد البر النمري الاندلسي مؤلف كتاب التمهيد الذي لم يؤلف في الفقه الاسلامي مثله بشهادة ائمة عصره ، وكتاب الاستذكار لما في الموطا من الآثار ، وكتاب

النقصي وهذه ثلاثة شروح للموطا ، وهو ايضا مؤلف جامع ببان العلم وفضله وغير ذلك من الكتب .

قال الحافظ ابو عمر يوسف بن عبد البر النمري في الكتاب المذكور الجزء الثاني صفحة 26 في بيان انه لا يحل لاحد ان يقول في شيء انه حلال او حرام الا بنص كتاب او سنة او اجماع معتد به او قياس على اختلاف فيه ، قال بسنده الى ابن عباس انه قال : انما هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن قال بعد ذلك شيئا برايه فما ادري أفي حسناته يجده أم في سيئاته ، ثم قال بسنده الى الشافعي انه قال ، ليس لاحد ان يقول في شيء حلال ولا حرام الا من جهة العلم ، وجهة العلم ما نص في الكتاب او في السنة او في الاجماع او القياس على هذه الاصول ما في معناها ، قال ، قال ابو عمر اما الاجماع فمأخوذ من قول الله (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ، النساء 115) لان الاختلاف لا يصح معه ، هذا ، ظاهر ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا تجتمع امتي على ضلالة) وعندي ان اجماع الصحابة لا يجوز خلافهم والله اعلم لانه لا يجوز على جميعهم جهل التاويل ، وفي قول الله تعالى (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) دليل على ان جماعتهم اذا اجتمعوا حجة على من خالفهم ، كما ان الرسول حجة على جميعهم ودلائل الاجماع من الكتاب والسنة كثيرة ، ليس كتابنا هذا موضعا لتقصيها وبالله التوفيق .

ثم روى بسنده الى بقية ابن الوليد انه قال سمعت الاوزاعي يقول العلم ما جاء عن اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وما لم يجيء عن واحد منهم فليس بعلم ، ثم روى بسنده الى معن بن عيسى انه قال سمعت مالك بن انس يقول انما انا بشر اخطيء واصيب فانظروا في رأيي فكلما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ، وكلما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه . ثم روى بسنده الى مطرف قال سمعت مالكا يقول ، قال لي ابن هرمز لا تمسك على شئا مما سمعت مني من هذا الراي فانما افتجرته انا وربيعة فلا تتمسك به، ثم روى بسنده الى ابن ابجر قال ، قال لي الشعبي ما حدثوك عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ به وما قالوا فيه برايهم قبل عليه ، ثم روى بسنده الى عاصم الاحول ، قال كان ابن سيرين اذا سئل عن شيء قال ليس عندي فيه الا راي انهمه فيقال له قل فيه على ذلك برايك فيقول لو اعلم ان رأيي يثبت لقلت فيه ولكني اخاف ان ارى اليوم رايا وارى غدا غيره فاحتاج ان اتبع الناس في دورهم ، وذكر وهب عن ابن لهيعة عن خالد بن ابي عمران عن سالم بن عمر ان رجلا سأله عن شيء فقال له سالم لم اسمع في هذا بشيء ، فقال له الرجل اني ارضى برايك ، فقال له سالم لعلي اخبرك برأي ثم تذهب فارى بعدك رايا آخر غيره فلا اجدك ، وروى عن ابي السمح انه سيأتي على الناس زمان يسمى الرجل راحلته ثم يسير عليها حتى تنزل بالمدينة من يقتيه بسنة فلا يجد الا من يفتيه بالظن ، ثم قال ابو عمر رحمه الله في الجزء الثاني صفحة 109 (باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع) .

قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه فقال (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) . وروى عن حذيفة وغيره، قالوا لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم احلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم، وقال عدي بن حاتم اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب ، فقال لي (يا عدي الق هذا الوثن من عنقك وانتهيت اليه وهو يقرا سورة براءة حتى اتى على هذه الاية (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) . قال ، قلت يا رسول الله انا لم نتخذهم اربابا ، قال بلى اليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ما احل الله لكم فتحرموه ، فقلت بلى ، فقال تلك عبادتهم . ثم روى بسنده عن ابن البحتري في قوله عز وجل (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) ، اكانوا يعبدونهم ، فقال لا ، ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه . ثم روى بسنده ايضا الى ابي البحتري في قوله تعالى (اتخذوا احبارهم ورهبانهم) الاية ، قال ، اما انهم لو امروهم ان يعبدوهم من دون الله ما اطاعوهم ولكنهم امروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فاطاعوهم فكانت تلك الربوبية .

قال ابو عمر ، في صفحة 109 ، ج 2 .. وقال جل وعز (وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون ، قل اولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم) فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا (انا بما ارسلتم به كافرون) ، وفي هؤلاء ومثلهم قال الله جل وعز (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) ، وقال (اذ تبرا الذين اتبعوا من

الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرا منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم) ، وقال جل وعز عائبا لاهل الكفر وذما لهم (ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) ، وقال (انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيل) ، ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء ، وقد احتج العلماء بهذه الآيات في ابطال التقليد ولم يمنعهم كفر اولئك من الاحتجاج بها لان التشبيه لم يقع من جهة كفر احدهما وايمان الآخر وانما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد كما قلد رجل فكفر وقلد آخر فاذنب ، فقلد آخر في مسألة دنياه فاخطأ وجهها ، كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة لان كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا وان اختلفت الاثام فيه . وقال الله جل وعز (وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) ، وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا في الباب قبل هذا وفي تبوته ابطال التقليد ايضا فاذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للاصول التي يجب التسليم لها وهي الكتاب والسنة او ما كان في معناهما بدليل جامع بين ذلك .

ثم قال بسنده الى عمرو بن عوف المزني عن ابيه عن جده ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اني لاخاف على امتي من بعدي من اعمال ثلاثة ، قال وما هي يا رسول الله ، قال اخاف عليهم من زلة العالم ومن حكم جائر ومن هوى متبع) ، وبهذا الاسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : (تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله) ، ثم روى بسنده الى زياد بن جدير قال ، قال عمر ثلاث يهدمن الدين ، زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن ، وائمة مضلون) ، قال ابو عمر في صفحة 112 ج 2 بسنده الى ابي العالية الرياحي ، قال سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول ويل للاتباع من عثرات العالم ، قيل كيف ذلك ؟ قال : يقول العالم شيئا برايه ثم يجد من هو اعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم منه فيترك قوله ذلك ثم تمضي الاتباع ، اهـ .

توضيحات

1 ـ في هذه الاخبار الاربعة خير حذيفة ، وخبر عدي وخبر ابي البختري فوائدة .

الاولى ان كل من جعل الحكم لغير الله تعالى ولغير المعصوم صلى الله عليه وسلم بان صار يحل ما يحلله له برايه ويحرم ما يحرمه عليه برايه ، ويعتقد وجوب ما يوجبه عليه واستحباب ما يستحبه له واباحة ما يبيحه له لانه بالغ في تعظيمه حتى جعل رايه حجة بل يخالف الكتاب والسنة ويتبع رأي مقلده بفتح اللام فقد اتخذه الها من دون الله .

الثانية : قول النبي صلى الله عليه وسلم لعدي لما رأى في عنقه صليبا الق عنك هذا الوثن دليل قاطع على ان كل جماد يتبرك به ابتداعا كالقباب المبنية على قبور الصالحين يسمى وثنا شرعا يزيده وضوحا ما رواه مالك في الموطأ عن زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد) وكذلك حديث ابي واقد الليثي ، قال كنا حديثي عهد بكفر ورأينا للمشركين شجرة يعكفون عندها وينيطون بها اسلحتهم يسمونها ذات انواط ، فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات انواط ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (الله اكبر انها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى (اجعل لنا الها كما لهم آلهة ،) لتتبعن سنن من كان قبلكم . فهؤلاء الصحابة الذين لم يمض على اسلامهم الا وقت قصير لم يتمكنوا فيه من التفقه في الدين كما ينبغي ، لم يتخذوا تلك الشجرة شيئا يتبرك به ، ولكن سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ان يأذن لهم في ذلك فاخبرهم ان ذلك شرك وان من اتخذها شيئا متبركا به يكون قد اتخذ الها من دون الله ، اما قول النبي عليه الصلاة والسلام اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، الحديث ، فيفهم منه ان كل قبر كائنا ما كان اذا وصل اليه الجهال وتمسحوا به وطافوا به يسمى وثنا ويكون هؤلاء مشركين . فان قلت فهل استجاب الله دعاء نبيه وحفظ قبره من وصول ايدي الجهال اليه ام لم يستجب دعاءه ؟

فالجواب ان الله استجاب دعاءه ، وحفظ قبره الشريف فلم تقع عليه عين فضلا عن ان تلمسه يد من زمان الصحابة الى يومنا هذا ، لانه عليه الصلاة والسلام اوصى ان يدفن في بيته الذي توفي فيه وهو بيت ام المؤمنين عائشة ، ليكون بعيدا عن متناول الجهال ، وكانت عائشة تسكن في البيت نفسه ولم يكن احد من الناس لا ابو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا غيرهم يأتون الى بيت عائشة ويستأذنونها في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما توفيت سد بيتها من جميع الجهات . ولما اراد الوليد بن عبد

الملك ان يدخل الحجرة فى المسجد منعه علمـــاء التابعين فابى لغرض خسيس تركت ذكره اختصارا . فاقترحوا عليه بناء مثلث تكون زاويتاه من جهة القبلة، والزاوية الثالثة من جهة الشمال حتى لا يعلى الجهال الى القبور الثلاثة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبر ابي بكر وقبر عمر . ثم جاء احد الملوك بعد ذلك بمئات السنين فبنى حوله سورا مربعا وهو الذي يراه الناس اليوم ويصلون اليه . وقد اشار الامام بن القيم رحمه الله فى النونية الى ذلك فقال :

ودعا بان لا يجعل القبـر الـذى
قد ضمه وثنا مـــن الاوثـــــان

فاجاب رب العالمين دعـــــاءه
واحاطـه بثلاثـــة الجـــــدران

حتى غدت ارجـاؤه بدعائـــــه
فى عزة وحمايـــة وصيـــــان

الثالثة : فى بعض الفاظ تلك الاحاديث فتلـــك الربوبية وفى بعضها فتلك عبادتهم ، وقد صرح القرآن الكريم بان اليهود اتخذوا احبارهم اى علماءهم اربابا من دون الله حين قلدوهم تقليد الاعمى وصاروا يفتـــون باقوالهم وارائهم ويقضون بها بدون دليل من التوراة ولا من كلام موسى وهارون . واتخذ النصارى رهبانهم اى المنقطعين الى العبادة اربابا من دون الله ، حيـــن جعلوا لهم الحكم كما فعل اليهود . فجـــاءت هـــذه الاحاديث تحذرنا ان نفعل مع علمائنا وائمتنا ما فعلوه اليهود والنصارى مع علمائهم وعبادهم .

2 ـ بين الحافظ ابو عمر رحمه الله انـــواع التقليد الثلاثة .

الاول : ان يقلد الرجل رجلا فى امر يخرجه من الملة كمن راى رجلا يسجد لمخلوق او يدعوه ويستغيث به او يذبح له وينذر له ، فقلده فى ذلك ، فان ذلـك يوقعه فى الشرك الاكبر .

الثاني : ان يرى رجل رجلا يشرب الخمـــر او يتعاطى الربا فيقلده فى ذلك ، فان ذلك يوقعـــه فى معصية من الكبائر اذا لم يستحل ذلك ، بل فعله وهو يعتقد حرمته .

الثالث : ان يقلد رجل رجلا فى حرث او زرع او بناء بيت او تجارة فيخطىء الصواب ، فقد اوقعه تقليده فى الخطا والخسران ، وهذه الانواع الثلاثة من التقليد كلها مذمومة ، الا انها مختلفه فى النتيجـــة ، فاولها اوقع صاحبه فى الكفر ، وثانيها اوقع صاحبه فى الاثم ، وثالثها اوقع صاحبه فى خسارة دنيوية . ولذلك احتج العلماء من ائمة اهل السنة بالآيات التي وردت فى تقليد المشركين لآبائهـــم على القضـــاة ، والمفتين الذين يقضون بالتقليد ويفتون به .

3 ـ قول النبي صلى الله عليه وسلم من اعمال ثلاثة ، زلة عالم الحديث ، زلة العالم ، ان يكون اماما مجتهدا فيخطىء فى مسالة ويتبين ان قوله مخالـف لنص الكتاب او السنة فيصير اتباعه على تقليده مـــع وقوفهم على خطئه ولذلك قيل (زله العالم زلة العلم ، وقد تكون الزلة متعمدة لان العالم غير معصوم فيعرف اتباعه ان فعله غير جائز ويصرون على اتباعه فيه .

وهذا شر من الذي قبله .

والحكم الجائر يدل على انحراف الامراء والحكام وهو من اعظم ابواب الفساد الذي يشتت شمل الامم ويوهن قوتها ويقضي بها الى الفناء ، ويقال فى الحكم صنفان من الناس اذا صلحوا صلح العالم واذا فسدوا فسد العالم ، وهم العلماء والامراء ، واما اتباع الهوى فهو سبب زوال العدل وفشو الظلم وذلك سبب شقاء الامم قال تعالى فى سورة النمل (ومكرو مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم اجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون وانجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون .) 51 ، 52 ، 53 .

وبسبب اتباع الهوى حكم اهل الجور بما تشتهيه انفسهم وتبدوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم قال تعالى فى سورة القصص (فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ، ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين) 50 ثم قال ، وليت عن النبي صلى الله عليه وسلم مما قد ذكرناه فى كتابنا هذا انه قال تذهب العلماء ثم تتخذ الناس رؤساء جهالا يسالون فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون) وهذا كله نفي للتقليد وابطال له لمن فهمه وهدى لرشده . وقال سفيان بن عيينة اضطجع ربيعة مقنعا راسه وبكى فقيل له ما يبكيك ؟ فقال رباء ظاهر وشهوة خفية والناس عند علمائهم كالصبيان فى حجور امهاتهم ما نهوهم عنه انتهو وما امرهم به ائتمروا ، اهـ .

قال محمد تقي الدين معنى ذلك ان الناس غلب عليهم التقليد والجهل وصاروا يقبلون كل ما يقولـه

علمائهم دون ان يضعوا اقوالهم فى الميزان ويميزوا اصوابهم من خطئهم فما قام الدليل على صحته اخذوا به وقبلوه ، وما قام الدليل على انه خطأ طرحوه . وهذا هو الاتباع الذي اثنى الله على من سار عليه فى قوله تعالى : (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم) . ولم يقل والذين قلدوهم . فالاتباع محمود والتقليد مذموم . وقال ايوب رحمه الله ليس تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره . وقال عبيد الله بن المعتز لا فرق بين بهيمة تقاد ، وانسان يقلد ، وهذا كله لغير العامة فان العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها لانها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل بعدم الفهم الى علم ذلك . قال ابو عمر وقد نظمت فى التقليد وموضعه ابياتا رجوت فى ذلك جزيل الاجر لما علمت ان من الناس من يسرع اليه حفظ المنظوم ويتعذر عليه المنثور وهي من قصيدة لي :

يا سائلا عن موضع التقليد خذ
عني الجواب بفهم لب حاضر

واصغ الى قولي ودن بنصيحتي
واحفظ علي بوادري ونوادري

لا فرق بين مقلد وبهيمة
تنقاد بين جنادل ودعاثر

لبا لقاض او لمفت لا يرى
عللا ومعنى للمقال السائر

فاذا اقتديت فبالكتاب وسنة المبعوث
بالدين الحنيف الطاهر

ثم الصحابة عند عدمك سنة
فاولاك اهل نهى واهل بصائر

وكذاك اجماع الذين يلونهم
من تابعيهم كابرا عن كابر

اجماع امتنا وقول نبينا
مثل النصوص لدى الكتاب الزاهر

وكذا المدينة حجة ان اجمعوا
متتابعين اوائلا باواخر

واذا الخلاف اتى فدونك فاجتهد
ومع الدليل فمل بفهم وافر

وعلى الاصول فقس فروعك، لا تقس
فرعا بفرع كالجهول الحائر

والشر ما فيه فديتك اسوة
فانظر ولا تحفل بزلة ماهر

حجج المقلدين وردها

وقد احتج جماعة من الفقهاء واهل النظر على من اجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بعد ما تقدم فاحسن ما رايت من ذلك قول المزني رحمه الله وانا اورده قال: يقال لمن حكم بالتقليد دهل من حجة فيما حكمت به ؟ فان قال نعم ابطل التقليد لان الحجة اوجبت ذلك عنده لا التقليد ، وان قال حكمت فيه بغير حجة . قيل له فلم اراقت الدماء وابحت الفروج واتلفت الاموال ، وقد حرم الله ذلك الا بحجة قال الله جل وعز (هل عندكم من سلطان بهذا) ؟ اى من حجة بهذا قال ، فان قال انا اعلم اني قد اصبت وان لم اعرف الحجة لاني قلدت كبيرا من العلماء وهو لا يقول الا بحجة خفيت علي ، قيل له اذا جاز لك تقليد معلمك لانه لا يقول الا بحجة خفيت على معلمك كما لم يقل معلمك الا بحجة خفت عليك فان قال نعم ، ترك تقليد معلمه الى تقليد معلم معلمه ، وكذلك من هو اعلى حتى ينتهي الامر الى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان ابى ذلك نقض قوله ، وقيل له كيف تجوز تقليد من هو اصغر منك واقل علما ولا تجوز تقليد من هو اكبر واكثر علما ، وهذا متناقض .

فان قال لان معلمي وان كان اصغر فقد جمع علم من هو فوقه الى علمه فهو ابصر بما اخذ واعلم بما ترك، قيل له وكذلك من تعلم من معلمك فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه الى علمه فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك ، وكذلك انت اولى ان تقلد نفسك من معلمك لانك جمعت علم معلمك وعلم من فوقه الى علمك فان التزم ذلك جعل الاصغر ومن يحدث من صغار العلماء اولى بالتقليد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع من درنه فى قياس قوله والاعلى الادنى ابدا ، وكفى بقول يؤول الى هذا قبحا وفسادا ، اهـ .

هذه ادلة قاطعة ، وبراهين ساطعة ، على صحة ما فعلوه اولئك الملوك العظام ، ونرجو ان يوفق الله جلالة ملكنا عالم الملوك ، وملك العلماء ، ان يحي هذه السنة ، فيصدر امره المطاع الى قضاة مملكته ، والى

المعتنين فيها الا يقضوا ولا يمتوا بالتقليد الاعمى ، بل بما قام عليه الدليل من الكتاب والسنة والاجماع والقياس الصحيح عند فقد الادلة الثلاثة ، وليس ذلك على همة جلالته العالية بعزيز لا سيما وقد وفقه الله لانشاء دار الحديث التي يتخرج فيها علماء محققون في علوم الكتاب والسنة واصول الفقه قادرون على استنباط الاحكام ، وزاده الله نعمة اخرى تعين على ذلك وهي طبع كتاب التمهيد الذي هو بحر زاخر بالاحاديث الصحيحة والاحكام المحررة المتينة .

وفي الختام نسال الله تعالى متوسلين اليه باسمائه الحسنى وصفاته العليا وبمحبتنا لحبيبه وخليله محمد صلى الله عليه وسلم ، واتباعنا له ان يبارك في حياة هذا الملك العظيم وان يخلد ملكه ويبارك في ولي عهده سيدي محمد ، ويؤيده بنصره وبالمؤمنين الصادقين حتى يحقق الآمال وهو لعمر الله خير من ينشد قول التباعر :

لسنا وان احسابنا كرمت
يوما على الاحساب تتكل

نبني كما كانت اوائلنا
تبني ونفعل مثل مافعلوا

بل نرجو من فضل الله الذي لا يتقيد بزمان ولا مكان ، ان يفعل فوق ما فعلوا ، وان يبني احسن مما بنوا .

ونساله سبحانه لسائر افراد البيت الملكي الكريم ان يبارك فيهم كما بارك في اسلافهم ويحفظهم من كل سوء ، ونساله تعالى لجميع اخواننا المسلمين شعوبا وملوكا ورؤساء ان يقيل عثرتهم ، ويجمع شملهم وينصرهم على اعدائهم ويعزهم بطاعته ، ولا يذلهم بمعصيته ، وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين .

المدينة المنورة ـ محمد تقي الدين الهلالي